لكن الأحمق عادة يرجح الإثم ويفعله، ومادام سبحانه قال : « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » . إذن فالإثم يترجح . وبعد ذلك جعلها بعلمه ـ سبحانه ـ أمرًا نهائيا ، والحكمة شاءت أن يكون التحريم بالتدريج . ويطمئننا الحق على أن علمه وحكمته منوط بها إخراج الأحكام ، ولذلك قال :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) ﴾

(سورة البقرة)

وسبحانه عليم لا يخفى عليه شيء ، ويعلم ان امرأة أحبت زوجها لدرجة أن هذا الأجر ليس له قيمة ، أو رجل أحب زوجته أيضا لدرجة أن النقود ليس لها قيمة عنده ، ومادام سبحانه حكيم . فهو قد يجرى الأمور لا بحتمية ما افترض ، ولكن بإبقاء على فضل المتعاملين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ

﴿ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

والاستطاعة تعنى أن يدخل الشىء فى طاعتى فلا يعصى ولا يتأبى على ، وافرض أننى أمسكت قطعة حديد ولويتها ، هنا تكون قطعة الحديد قد دخلت فى طوعى ، ومثال ذلك : ابنا آدم ، حين قدم كل منهما قربانا لله فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فالذى لم يتقبل الله منه القربان قال :

﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة المائدة)

فماذا كان ردُّ الذى تلقى التهديد ؟ قال :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ما معنى « طوعت له » ؟ طوعت يعنى : جعلته فى استطاعته ، وعندما نمعن النظر فى « فطوعت له نفسه » نجد أن « الهاء » تشير إليه هو ، وذلك يدل على أن الإنسان فيه ملكات متعددة ؛ ملكة تقول : اقتله ، وملكة أخرى تقول له : لا تقتله . ضميره يقول له : لا تفعل ، والنفس الأمارة بالسوء تقول له : اقتل ، ويكون هو مترددا بين الأمرين .

وقوله الحق : « فطوعت له » دليل على أن نفسه كانت متأبية عليه ، لكن النفس

الأمارة بالسوء ظلت وراءه بالإلحاح حتى أن نفسه الفاعلة طوعت له أن يقتل أخاه ، ومع أن نفسه طوعت له أن يقتل أخاه إلا أنه أصبح بعد ذلك من النادمين ، وبعدما أخذ شهوته من القتل ندم ، ويأتى هذا الندم على لسانه :

﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

أنت الذى قتلته ، لكنك أصبحت من النادمين . لماذا ؟ لأن ملكات الخير دائما تُصعد عمل الخير وتحبط عمل الشر . والإنسان قد يبدأ شريرا ، وإن كانت ملكاته ملكات خير غالبة ، فهو ينزل من هذا الشر العالى ويخففه ، وإن كانت ملكات الشر غالبة فهو يبدأ فى الشر قليلا ثم يصعده ، فيقول فى نفسه : فلان فعل فىَّ كذا وأريد أن أصفعه صفعة ، وبعد ذلك قد يرفع من شره فيقول : « أو أضربه ضربة » . لكن إذا ما كان الإنسان خيِّراً ، فيقول : « فلان كاد لى ، أريد أن أضربه رصاصة أو أضربه صفعتين أو أوبخه » إنه ينزل من الشر ويصعد من الخير . كما فى قصة سيدنا يوسف وإخوته حين قالوا :

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إنهم أسباط ، وأولاد النبى يعقوب ، فيقللون من الشر ، يخففونه مباشرة قائلين : « أو اطرحوه أرضا » يعنى يلقونه فى أرض بعيدة ، إذن فخففوا القتل فى نفس واحد ، كيف تم هذا الانتقال من القتل إلى اطرحوه أرضا ؟ ثم خففوا الأمر ثانية حتى لا يأكله سبع أو يتوه ، فقالوا : « وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة » .

إذن فقوله : « ومن لم يستطع منكم » أى من لم يستطع دخول الشىء فى طوعه أو أن تطوله يداه ، وهذا هو المقصود بالطول ، « فطالته يده » يعنى صار فى استطاعته ، وفلان تطول علىّ ، أى تفضل علىّ بشىء ، « وفلان تطاول علىّ » أى ما كان يصح أن يجترىء علىّ ، وكلها من الطول ، و« طولا » : تعنى قدرة تطول بها الزواج بمن تحب ، أى أنت لا تملك مالا ولا تستطيع الطول ، فهناك مرحلة أخرى ، لا داعى للحرة لأن مهرها غالٍ غالبا ؛ فخذ من الإماء الأسيرات لأن مؤنتهن ونفقتهن خفيفة ، وليس لها عصبة ولا أهل يجادلونك فى المهر ، فقال : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » . . والذى نلمحه فى الآية . أن نكاح ما ملكت اليمين يكون لغير مالكها ؛ لأن مالكها لا يحتاج ذلك ، إنه يستمتع بها ويتغشاها ، لأنها ملك يمينه وليست مملوكة للغير .

إذن فقد أباح الله للمسلم أن ينكح مما ملكت يمين غيره على شرط أن يكون ذلك بإذن مولاها ؛ لأنها بالزواج تقتطع جزءًا من وقتها وخدمتها لمن يملك رقبتها ، فلا بد أن يُستَأذَن حتى يكون أمر انقطاعها إلى الزوج فى بعض خدماته مما هو معلوم لأوليائهن ، وأمر أيضا سبحانه ألا نستهين بأنها مملوكة ومهينة فلا نأتيها مهرها . بل يجب أن يُؤدَى لهؤلاء مهورهن بما يعرف ، أى بالمتعارف عليه ؛ لأن ذلك عوض البضع ، فإذا كان الحق قد أمر بأن نستأذن مواليهن وأمر بأن نأتيهن أجورهن ، هنا بعض الإشكال لأنَّ المملوكة لا تملك ؛ لأن العبد وما ملكت يداه لسيده .

نقول له : نعم ، ولكن إذا قلت : العبد وما ملكت يداه لسيده فلا بد أن تحقق لها ملكا أولا ثم يكون ما تملكه لسيدها . . أما أن تتعداها وتعطى المال لسيدها فإنها فى هذه الحالة لم يتحقق لها مهر ، فقولك : العبد وما ملكت يداه ، أى أعطها فترة وفرصة لتكون مالكة بأن تُعطى الأجر تكريما لها ، أما كون مالها لسيدها فهذا موضوع آخر . وبعد ذلك تذهب لتتزوجها إن ذلك يصح ، فهل نفهم من ذلك أنك إن استطعت طوْلا لا تنكح الإماء ؟ لا . وهل هذا يقلل من شأن الإماء ؟ لا . لماذا ؟ انظر للحكم العالية التى لا يقولها إلا رب .

الله يريد أن يصفى مسألة الرق ، فحين يأتى واحد ويتزوج أمة مملوكة لغيره



فأولادها يتبعونها فى الرق . فالأولاد فى الدين تتبع خير الأبوين ، وفى الحرية والرق يتبع الأولاد الأم ، فإذا ما تزوج إنسان أَمَةً مملوكة لغيره فأولادها الذين سيأتون يكونون عبيدا . وحين يتركها لسيدها ويتزوج غيرها من الحرائر ، فمن تلده من سيدها يكون حرا ، إذن فسبحانه يريد أن يصفى الرق ، هذه واحدة ، الشيء الآخر أن الزواج : التقاء الذكر بالأنثى ليكونا نواة أسرة ، فإذا ما كان الزوج والزوجة أكفاء . فالزوج لا يجد فى نفسه تعاليا على الزوجة ، والزوجة لا تجد فى نفسها تعاليا على الزوج ؛ لأن كل واحد منهما كفء للآخر ، وهذه تضمن اتزان الحياة واتزان التعامل ، لكن حين يتزوج واحد أمةً ليس لها أهل فقد يستضعفها وقد يستعلى عليها . وقد يذلها . وقد يعيرها ، وحين يكون لها أولاد قد يقولون لهم : ليس لكم خال مثلا . والمشرع يريد أن يبنى حياة أسرية متزنة ، ولذلك اشترط الكفاءة ، وقال :

﴿ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وبعض من الناس تفهم عندما ترى طيبة فلا بد أن يتزوجها رجل طيب ، نقول لهم : إن هذا تشريع والتشريع تكليف وعرضة أن يطاع وعرضة أن يعصى ، فسبحانه حين يشرع أن الطيبات يكن للطيبين والخبيثات للخبيثين ، فإن طبقتم التشريع تكون المسائل مستقيمة ، وهذا يحمل الرد على من يقولون : مادام ربنا يقول : « الطيبات للطيبين » فكيف يتزوج فلان بفلانة وأحدهما طيب والآخر خبيث ؟

ونقول : إن هذا الحكم ليس فى قضية كونية حادثة ، بل هو قضية تشريعية تقتضى منا أن نتبعه وأن نجعل الطيبين للطيبات والخبيثين للخبيثات ليتحقق التوازن . فإن كان خبيثا وقال لها : أنت كذا وكذا تقول له : أنت كذا وكذا . فلا يقول هذه كى لا تقول له مثلها ، أما الإنسان الطيب فهو يلين جانبه مرة وهى طيبة وتلين جانبها مرة .

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات » كلمة « المحصنات » تعنى هنا الحرائر ؛ لأنها لو كانت متزوجة فلن تكون محل تزويج لآخر . « فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » وكلمة « فتى » نطلقها فى الحر على من له

فتوة وشباب ، ونطلق كلمة فتاة على أى أمة ولو كانت عجوزا ، وعلمنا رسول الله ألا نقول : هذا عبدى وهذه أمتى . وإنما نقول : « فتاى » و« فتاتى » .

« فمن ما ملكت أيمانكم ». ويتساءل البعض : وهل يتزوج الإنسان ممن يملكها ؟ نقول له: لا . إنها حلال له فهى مملوكة له ملك يمين ويستطيع أن يكون له منها ولد ، إذن فتكون ما ملكت أيمان غيركم ، لأن الله يخاطب المؤمنين على أنهم وحدة بنيانية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[1] .

ويقول الحق :

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ويقول فى موضع آخر :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

فهل يسلم المؤمن على نفسه أو يسلم على من دخل عليهم ؟

إن الحق يريد بالتشريع أن يجعل المؤمنين كالجسد الواحد ، ولذلك قال أيضا :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النساء)

أى لا تقتلوا غيركم ، والمعنى هو أن الوحدة الإيمانية يجب أن تجعلنا متكاتفين فى وحدة .

« فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم » . وقد تقول :

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى موسى .

إن إيمان ملك اليمين ضعيف وتجعلها علة . يقول لك الحق : لا « والله أعلم بإيمانكم » ولعل أمة خير فى الإيمان منك ؛ لأن هذه مسألة دخائل قلوب ، وأنت يكفيك أن تعلم الظاهر .

والحق سبحانه وتعالى حين يعالج الأمر يعالجه معالجة رب . يعلم واقع ما خلق ويعطى كل مطلوبات المخلوق ، هو أولا أوضح : أنتم إن كنتم لا تستطيعون طولا أن تنكحوا المحصنات فانكحوا الإماء ، وهذا من أجل مزيد من تصفية الرق .

بعد ذلك يقول : « والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض » فإن كنت ستتزوج يجب أن تجعل نصب عينيك أمرا هو : أن « بعضكم من بعض » . أى أنكم جميعا من آدم . ومادمت قد آمنت ، فالإيمان سوّى بينكما ، فإذا ذهبت لتتزوج فلا بد أن تضع هذا نصب عينيك ، إنه سبحانه يعالج واقعا .

ويقول بعد ذلك : « فانكحوهن بإذن أهلهن » . وهذا إشعار بأن من تحت يده فتاة يملك يمينه فعليه أن يعاملها معاملة الأهل ليعوّضها عما فقدته عند أهلها هناك ، ولتشعر أنها فى حضانة الإسلام مثلما كانت فى حضانة أهلها وآبائها أو أكثر .

إذن فالذى يملك لابد أن يجعل نفسه من الأهل ، وبذلك يزيد الحق سبحانه وتعالى من أبواب تصفية الرق ، وأوضح : فإن لم يُدخل واحد منكم مَن يملكه فى هذه المصاف فسوف يبقيه رقيقاً ، وإذن فعليه أن يطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفه ما لا يطيق فيدك بيده . وعندما يوجد معك إنسان تلبسه من لبسك وتطعمه من أكلك ، وعندما يعمل عملاً يصعب عليه فأنت تساعده ، فأى معاملة هذه ؟ إنها معاملة أهل .

انظر كم مسألة يعالجها الحق : يعالج طالب الزواج ويعالج المملوكة ، ويعالج السادة ، إنه تشريع ربّ الجميع . فلا يشرع لواحد على حساب آخر . ومادامت ملك يمين ولها سيّد فهذا السيد له مصالح لابد أن تستأذنه ، فقد لا يستطيع أن يستغنى عنها لأنها تخدمه ، فقال : « بإذن أهلهن » ، لكن فى المهور قال :

« فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف » فالأمة تنكح بإذن من يملكها كى يعرف أن هناك من دخل شريكا له فى العملية ويأخذ البضع وهو الزوج ، وحين يُستأذن السيد ويزوّجها فهو يعلم أنها لم تعد له ، وبذلك لن يأخذها أحد من خلف ظهره ، وهو بالاستئذان والتزويج يرتب نفسه على أن البضع قد أغلق بالنسبة له ، وبقيت له ملكية الرقبة . أما ملك البضع فهو للزوج .

« وآتوهن أجورهن بالمعروف » فإياكم أن تقولوا : هذه مملوكة يمين وأى شىء يرضيها ويكفيها ، لا . فلها مهر بالمعروف أى بالمتعارف الذى يعطيها ميزان الكرامة فى البيئة ، « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان »وقلنا: إن المحصنة هى العفيفة ، « غير مسافحات » والمسافِحَة : هى من تمارس وتزاول عملية الزنا ، ويسمونها : امرأة عامة ، ومتخذات أخدان : أى يتخذن عشّاقا وأخدانا .

« فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » أى إذا تزوجت الإماء وجاءت الواحدة منهن بفاحشة فلها عقاب . أما إن لم تحصن فليس عليهن حاكم ويقوم سيدها بتعزيرها وتأديبها ؛ لأن الأمة عادة مبتذلة ، لكن عندما تتزوج تصير محصنة ، فإن أتت بفاحشة نقول لها : أنت لك عقابك الخصوصى ، لن نعاقبك عقاب الحرّة ؛ لأن الحرة يصعب عليها الزنا ، لكن الأمة قد لا يصعب عليها أن يحدث منها ذلك ، فليس لها أب ولا أخ ولا أسرة ، فقال : « فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، أى نصف ما على الحرائر من العذاب .

لكن الخوارج أخذوا الكلمة فى معنى من معانيها ليخدم قضية عندهم وقالوا : إن « المحصنات » هن المتزوجات ، هم يريدون أن يأخذوها بمعنى المتزوجات كى يقولوا : مادامت الأمة عليها نصف ما على المتزوجة ، إذن فالمتزوجة ليس عليها رجم ؛ لأن الرجم لا ينصف . . والخوارج أخذوا هذه وقالوا : إن القرآن لا يوجد فيه رجم واكتفوا بجلد الزانية مائة جلدة .

ونقول لهم : أنتم أخذتم المحصنة على معنى أنها المتزوجة ، ونسيتم « ومن لم

يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات » . . فالمحصنات هن الحرائر ، فلماذا أخذتم المحصنات هناك بمعنى الحرائر والمحصنات هنا بمعنى المتزوجات ؟! إن عليكم أن تأخذوها بمعنى الحرائر ولا حجة لكم فى مثل هذا الباطل . وبذلك تسقط الحجة ، فالدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

ثم نبحث بحثاً آخر ، نقول : يقول الحق : « فعليهن نصف ما على المحصنات » لو أن الحكم على إطلاقه لما قال الحق : « من العذاب » ، فكأن الذى عليها فيه النصف هو العذاب ، وما هو العذاب ؟ العذاب هو إيلام من يتألم ، والرجم ليس فيه عذاب لأنه عملية إنهاء حياة ، والآية تبين المناصفة فيما يكون عذاباً ، أما ما لا يكون عذاباً فهو لا ينصّف والحكم غير متعلق به . فالعذاب إنما يأتى لمن يتألم ، والألم فرع الحياة . والرجم مزيل للحياة ، إذن فالرجم لا يعتبر من العذاب ، والدليل على أن العذاب مقابل للموت أن الحق سبحانه وتعالى حينما حكى عن سيدنا سليمان وتفقده الطير قال :

﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢٠/٢١ سورة النمل)

فالذبح وإزهاق الحياة مقابل للعذاب ، فقوله : « نصف ما على المحصنات » فالمتكلم فيه الآن العذاب وليس الرجم ، وليس إزهاق الحياة وبهذا يسقط الاستدلال .

والذين يقولون : إن آيات القرآن لا تدل على رجم نقول لهم : ومن الذى قال لكم إن القرآن جامع لكل أحكام منهج الله فى الإسلام وأنه فصل كل شىء ؟ . . القرآن لم يجىء كتاب منهج فقط ، وإنما جاء معجزة وكتاب منهج للأصول ، ثم ترك للرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس ما نزل إليهم فضلا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم بنص القرآن عنده تفويض من الله أن يشرع ، وتلك ميزة تميّز بها صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين فالله قد أعطاه الحق فى أن يشرع ، بدليل أنه سبحانه قال فى صلب القرآن الذى يشتمل على أصول منهج الإسلام :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فللرسول عمل مع القرآن ، وإلا فليقل لى من يدّعى أنّ فى القرآن كل حكم من أحكام دين الله ، من أين أخذ تفصيل حكم الصلوات الخمس ؟ ومن أى آية أخذ أن الصبح ركعتان ؟ وأخذ الظهر أربعاً وأخذ العصر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ، والعشاء أربعاً ، من أين أخذها ؟! إذن لا يوجد شىء من ذلك ، فما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن القرآن جاء كتاب معجزة وفيه منهج يتعلق بالأصول . ومادام المنهج الذى تعلق بأصول الأشياء قد أعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرع ، إذن فتشريعه مأمور به ومأذون فيه من صلب القرآن . ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المتعنت : هات لى هذا الحكم من القرآن ، ونظرت فى كتاب الله فلم تجد ، فقل له : دليل الحكم فى القرآن هو قول الله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وأى حكم من الأحكام يأتى ولا تجد له سنداً من كتاب الله ويقال لك : ما سنده ؟ قل : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

والمنهج أوامر ونواهٍ . إذن فالطاعة أن تمتثل أمراً وتجتنب نهياً ، تلك هى الطاعة ، كل منهج أو دين أمر ونهى ، فامتثل الأمر واجتنب النهى . وأنت إذا تصفحت القرآن وجدت آيات الطاعة المطلوبة من المؤمن بمنهج الله والذى شهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تتمثل فى الأمر والنهى . فإذا ما استقرأت القرآن وجدت ـ كما قلنا سابقاً ـ أن الحق سبحانه وتعالى يقول مرة فى الطاعة :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

ولم يكرر الحق هنا أمر الطاعة ، فالمطاع هو المكرر ، فـ« أطيعوا » أمر واحد ، نطيع من؟ . . الله والرسول . المطاع هنا هو الله والرسول ، ومرة يكرر أمر الطاعة فيقول :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

ومرة ثالثة يقول :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النور)

ومرة رابعة يقول :

﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وأدخل هنا أولى الأمر أيضاً ، إذن فمرة يأمر بالطاعة ويكرر المطاع فقط . أى : يوحد أمر الطاعة ، ويكرر المطاع « قل أطيعوا الله والرسول » ، فوحد أمر الطاعة وكرر المطاع ، ومرة يكرر أمر الطاعة ، ويكرر معها المطاع : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، ومرة يقول « وأطيعوا الرسول » فإذا قال لك : « أطيعوا الله والرسول » فالأمر قد توارد فيه حكم الله وحكم الرسول . إذن فتطيع فيه الله والرسول ، وإذا كان لله أمر إجمالىٌّ وللرسول أمر تفصيلىٌّ كالصلاة والزكاة والحج ، إذن فتطيع الله وتطيع الرسول .

وإذا لم يكن لله أمر فيه بل جاء من باطن التفويض فى قوله سبحانه : «و ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فهذا الأمر أطيع فيه الرسول ، لأنه جاء فى آية أخرى قوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، لماذا ؟ لأن الرسول عمل بالتفويض الذى أعطاه الله له حسب قول الحق : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وبقيت طاعة أولى الأمر التى جاءت فى قوله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » أى أطيعوا أولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، فلم يفرد ولى الأمر بطاعة وإنما جعل طاعته من : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، بل قال : وأولى الأمر ، أى من باطن طاعة الله والرسول ، إنها دقة الأداء فى القرآن . تأمل ما يقوله الحق سبحانه : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

لقد قلنا : إن الطاعة امتثال أمر واجتناب نهى . . والموجود هنا « آتاكم » و« نهاكم » ؛ فـ « آتى » هذه جاءت بدل وما أمركم والنهى موجود بلفظة « وما نهاكم عنه » الأمر هو « آتاكم » ، ولماذا لم يقل : وما أمركم به الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ؟ ولماذا لم يختصر فيقول : وما آتاكم الرسول فخذوه ؟! لأن الإتيان من الرسول إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلاً ، ولكن أيكون المنهىّ عنه فعلاً يفعله الرسول ؟! لا يمكن .

إذن فالنهى لا يتأتى إلا نهياً ومنعا من الفعل ، لكن الإيتاء يكون قولاً أو فعلاً ؛ لأنه عندما يقول لك : لا تشرب الخمر ، فهاذا كان يفعل النبى كى نأخذه من الفعل ؟ إن الرسول قطعا لم يشرب الخمر . إذن فقول الرسول وفعله يتأتى فى المأمور به ، وأما فى المنهى عنه فلا يتأتى إلا قولاً . بالله أمِنَ الممكن أن يأتى بهذا عقل بشرى ؟ لا يمكن ، ولا يقولها إلا الله .

ثم نبحث بحثاً آخر يا خوارج . إن الرسول إنما جاء ليبلغ عن الله ـ ومراد التبليغ أن يعلمنا بالحكم ، لنؤدى مدلوله ، فإذا جاء حكم قولاً بالنص ، فالذى يشرحه لنا هو ما يفعله الرسول ، وحين يفعله الرسول أيوجد مجال للكلام فى هذا النص ؟ لا يوجد ، بل تكون المسألة منتهية . إذن فالفعل أقوى ألوان النص فى الأوامر ؛ لأن الأمر قد يأتى كلاماً نظرياً ، وقد يتأول فيه البعض . لكن عندما يفعل الرسول يكون الحكم لازماً ؛ لأن الذى فعل هو المشرع .

أرجم رسول الله أم لم يرجم ؟ قد فعل رسول الله ذلك ، وفعله هو نص عملىّ . إنّ الفعل ليس نصاً قوليًا يُتأول فيه . لقد رجم الرسول ماعزاً والغامدية ورجم اليهودى واليهودية وكانا قد أحصنا بالزواج والحرية . . وفعل الرسول هو الأصل فى الحكم . فدليل الخوارج إذن قد سقط به الاستدلال وبقى ما فعله المشرع وهو الرسول المفوض من الله فى أن يشرع قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، أى يرى أحداً يفعل فعلاً فيقرّه عليه .

ثم نبحثها بالعقل : إذا كنت تريد ألا يوجد فى الزنا حد إلا الجلد ، أتسوى بين من لم يتزوج ومن تزوج ؟ إن المتزوجة لها عرض ولها زوج ولها نسب ونسل . هل

هذه مثل تلك التى لم تتزوج ؟! إن هذا لايتأتى أبدا بالعقل ، إذن فحكم الرجم موجود من فعل الرسول ، والدليل الذى استدل به الخوارج هو دليل تسرب إليه الاحتمال . والدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

« فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم » . ومن هو المقصود بـ « ذلك » ؟ المقصود به إباحة نكاح الإماء لمن لم يجد طوْلا أن ينكح من الحرائر . وما هو « العنت » ؟ « العنت » هو المشقة والجهد ، وإرهاق الأعصاب ، وتلف الأخلاق والقيم ، لأن الإنسان إذا هاجت غرائزه إما أن يعف وإما أن ينفلت . فإن انفلت فقد تسرب الفساد إلى قيمه وإلى خلقه ، وإن لم ينفلت والتزم ، ماذا يحدث ؟ سيقع بين أنياب المرض النفسى وتأتيه الأمراض العصبية . فأباح له الله أن يتزوج الأَمَةَ ، إن لم يجد طوْلا فى الزواج من الحرائر .

وبذلك يكون مفهوم الآية : إن الذى لا يخشى العنت فليس ضروريا أن يتزوج الأَمَةَ[1] . وليس هذا تزهيدًا فى الأَمَةِ بل فيه احترام لها ، لأنها إن تزوجت ثم ولدت ممن تزوجته فسيصبح ولدها عبدا ، والله يريد أن يصفى الرق والعبودية ، فيوضح له : دعها لسيدها فإن أعجبته وَحَلَت فى عينيه ووطئها وجاءت منه بولد فستكون هى والولد من الأحرار إنهما قد دخلا فى دائرة الحرية .

إذن فالحق يريد أن يصفى الرق ، ثم قال : « وأن تصبروا خيركم لكم » أى وصبركم عن نكاح الإماء . وأنتم فى عفة وطهر عن مقارفة الإثم إن ذلك خير لكم من زواجهن ، فنكاح الحرائر أفضل .

ويذيل الحق الآية : بقوله : « والله غفور رحيم » أى إنه (غفور) لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها (رحيم) بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقة عليكم وحبا فى رجوعكم إليه .

---

(١) من الفقهاء من يشترط لصحة نكاح الأَمَة شروطا هى : ألا يجد ما يتزوج به امرأة حرة ، وأن تكون الأمة مسلمة . وأن يخاف الوقوع فى الإثم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

ماذا يبين لنا ؟ إنه ـ سبحانه ـ يبين القوانين الحاكمة لانتظام الحياة . . وقلنا إنه لا يمكن أن يوجد تجريم إلا بنص ولا توجد عقوبة إلا بتجريم . فقبلما يعاقبك على أمر فهو يقول لك : هذه جريمة ويُنص عليها ، إنه لا يأتى ليقول لك : فعلت الشيء الفلانى وهذه عقوبته ؛ لأنك قد تقول له : فعلت هذا الفعل من قبل ولم أعرف أنه جريمة وعليه عقوبة . إذن فلا يمكن أن تعاقب إلا إذا أجرمت ، ولا يمكن أن تجرم إلا بنص ، فيريد الله أن يبصركم ببيان ما تصلح به حركة حياتكم ، والله آمن عليكم من أنفسكم ، لأنه هو سبحانه الذى خلق وهو يعلم من خلق .

إن سبحانه ـ وحده ـ الذى يقنن ما يصلح مخلوقه ، أما أن يخلق هو وأنت تقنن فهذا اعتداء ؛ لأنه سبحانه يقنن لما يعلم ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا سابقا : إن المهندس الذى يصنع التليفزيون هو الذى يضع له قانون الصيانة ؛ لأنه هو الذى صمم الآلة ، وهو الجدير بأن يضع لها قانون صيانتها ، فيعلمنا : المفتاح هذا لكذا ، وهذا للصورة وهذا للصوت .

إن الذى خلق الإنسان هو الذى يضع قانون صيانته المتمثل فى « افعل ولا تفعل » ، وترك سبحانه أمورا لم يرد فيها افعل ولا تفعل ، وهى متروكة على الإباحة ، تفعله أو لا تفعله ، إنه سبحانه : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم » ، والسنة هى الناموس الحاكم لحركة الحياة . والحق يقول :

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

والرسل سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وعرفنا الذين أطاعوا رسلهم ماذا حدث لهم ، والذين كذبوا رسلهم ماذا حدث لهم . لقد قال الحق فى شأنهم :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

فالله يريد أن يبين لنا سنن من قبلنا ، أى الطرائق التى حُكموا بها ، وماذا حدث لأهل الحق وماذا حدث لأهل الباطل . إذن فهو ليس تقنينا أصم ، بل هو تقنين مسبوق بوقائع تؤكده وتوثقه ، « ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم » وهو سبحانه يبين ويوضح ويتوب ، « والله عليم » لأنه خالق ، « حكيم » يضع الأمر فى موضعه والنهى فى موضعه . فالحكمة هى : وضع الشىء فى موضعه ، وسبحانه يضعه عن علم ، فالعلم يقتضى اتساع المعلومات ، والحكمة هى وضع كل معلوم فى موقعه .

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾

سبحانه قال فى الآية السابقة : « يريد الله ليبين لكم » ، وبعد ذلك يقول : « ويهديكم » ، وبعد ذلك : « ويتوب عليكم » ، وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « والله يريد أن يتوب عليكم » ، فلماذا جاء أولا بـ « ويتوب عليكم » وجاء هنا ثانيا بـ «والله يريد أن يتوب عليكم » ؟

نقول : التوبة لا بد أن تكون مشروعة أولا من الله ، وإلا فهل لك أن تتوب إلى الله من الذنب لو لم يشرع الله لك التوبة ؟ أتصحُ هذه التوبة ؟ إنه سبحانه إذن يشرع التوبة أولا ، وبعد ذلك أنت تتوب على ضوء ما شرع ، ويقبل هو التوبة ، وبذلك نكون أمام ثلاث مراحل : أولا مشروعية التوبة من الله رحمة منه بنا ، ثم توبة العبد ، وبعد ذلك قبول الله التوبة ممن تاب رحمة منه ـ سبحانه ـ إذن فتوبة العبد بين توبتين من الرب : توبة تشريع ، وتوبة قبول .

« والله يريد أن يتوب عليكم » ، مادام سبحانه قد شرع التوبة أيشرعها ولا يقبلها ؟! لا ، فمادام قد شرع وعلمنى أن أتوب فمعنى ذلك أنه فتح لى باب التوبة ، وَفَتْحُ باب التوبة من رحمة العليم الحكيم بخلقه ؛ لأن الحق حينما خلق الإنسان زوده دون سائر الأجناس بطاقة من الاختيارات الفاعلة ، أى أن الإنسان يستطيع أن يفعل هذه أو يفعل تلك ، وجعل أجهزته تصلح للأمر وللنهى ، فالعين صالحة أن ترى آية فى كون الله تعتبر بها ، والعين ـ أيضا ـ صالحة أن تمتد إلى المحارم . واللسان صالح أن تسب به ، وصالح أن تذكر الله به قائلا : لا إله إلا الله وسائر أنواع الذكر . واليد عضلاتها صالحة أن ترفعها وتضرب بها ، وصالحة لأن تقيل وترفع بها عاثرا واقعاً فى الطريق .

هذا هو معنى الاختيار فى القول وفى الفعل وفى الجوارح ، فالاختيار طاقة مطلقة توجهها إرادة المختار ، وإذا نظرت إلى اليد تجد أنك إذا أردت أن ترفعها ، فإنك لا تعرف شيئاً عن العضلات التى تستعملها كى ترفع اليد . فالذى يرفع يده ماذا يفعل ؟ وما العضلات التى تخدم هذا الرفع ؟ وأنت ترى ذلك مثلاً فى الإنسان الميكانيكى أو تراه فى رافعة الأثقال ـ الونش ـ التى ترفع الأشياء ، انظر كم عملية لتفعل ذلك ؟ أنت لا تعلم شيئاً عن هذه المسألة فى نفسك ، لكنك بمجرد أن تريد تحريك يدك فأنت تحركها وتطيعك . وعندما يريد المهندس أن يحرك الإنسان الآلى فهو يوجهه بحسابات معينة ليفعل كذا وكذا ، أما الإنسان فيحرك اليد أو القدم أو العين بمجرد الإرادة .

والحق حين يسلب قدرة الإنسان ـ والعياذ بالله ـ يصيبه بالشلل ، إنه يريد

فلا تنفعل له اليد أو غيرها ولا يعلم ما الذى تعطل إلى أن يذهب إلى الأطباء ليبحثوا فى الجهاز العصبى ، ويعرفوا لماذا لم تنفذ أعصابه الأوامر ، إنها عملية طويلة . إذن فالإنسان ـ عندما يريد الحركة ـ يوجّه الطاقة المخلوقة لله فقط ، فليس له فعل فى الحقيقة ، فأنا إنْ أثابنى الله وجازانى على طاعة فذلك لأنّى وجهت الآلة الصالحة للفعل إلى عمل الخير ، وعندما تسمع أنه لا أحد بيده أن يفعل شيئاً فهذا صحيح ؛ لأن أحداً لا يعرف كيف يفعل أى شىء ، إنه فقط يريد ، فإن وجهت الطاقة للفعل فهذا عملك أنت . فمعنى الاختيار ـ إذن ـ أن تكون صالحاً للفعل ومقابل الفعل وهو الانتهاء والترك .

وعندما يبين الحق سبحانه وتعالى لك وينزل لك المنهج الذى يقول لك : وجه طاقتك لهذه ولا توجهها لهذه ، معنى ذلك أن طاقتك صالحة للاثنين . إذن فأنت مخلوق على صلاحية أن تفعل وألا تفعل ، وما تركه المنهج دون أن يقول لك فيه « افعل » ولا « تفعل » فإن فعلته على أى وجه لا يفسد به الكون ولا تفسد به حركة حياتك فهذا هو المباح لك .

وحينما شرع الحق سبحانه التوبة أوضح : أنه إذا انفعل مريد لعمل شىء فوجه طاقته لعمل شىء مخالف ، قد تكون شهوته أو شِرّته قد غلبت عليه ، فتوجه فى ساعة ضعف إلى عمل شرّ ؛ لذلك شرعت التوبة.لماذا ؟ لأننا لو أخرجنا هذا الإنسان من حظيرة المطيعين بمجرد فعل أول عمل شرّ لصارت كل انفعالاته من بعد ذلك شروراً ، وهذا هو الذى نسميه « فاقداً » ، فيشرع الحق : إن فعلت ذنباً فلا تيأس ، فنحن سنسامحك ونتوب عليك .

فساعة شرع الله التوبة رحم المجتمع من شراسة أول عاصٍ ، فلو لم تأت هذه التوبة لكثرت المعاصى بعد أول معصية . ومقابل قول الحق : « والله يريد أن يتوب عليكم » وتنبيهه أن الذنوب التى فعلتها قبل ذلك يطهرك منها بالتوبة ، مقابل ذلك الذين يتبعون الشهوات ويريدون منك أن تأتى بذنوب جديدة ، لذلك يقول الحق سبحانه : « ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا » والميل هو مطلق عمل الذنوب . إنّك بذلك تميل عن الحق ؛ لأن الميل هو انحراف عن جادة مرسومة لحكيم ، والجادة هى الطريق المستقيم .

هذه الجادة من الذى صنعها ؟ إنه الحكيم . . فإذا مال الإنسان مرّة فربنا يعدله على الجادة مرّة ثانية ، ويقول له : « أنا تبت عليك » ، إنه ـ سبحانه ـ يعمل ذلك كى يحمى العالم من شرّه ، لكن الذين يتبعون الشهوات لا يحبون لكم فقط أن تميلوا لمرّة واحدة ، بل يريدون لكم ميلاً موصوفا بأنه ميل عظيم . لماذا ؟ . . لأن الإنسان بطبيعته ـ كما قلنا سابقاً ـ إن كان يكذب فإنه يحترم الصادق ، وإن كان خائناً فهو يحترم الأمين ، بدليل أنه إن كان خائناً وعنده شىء يخاف عليه فهو يختار واحداً أميناً ليضع هذا الشىء عنده .

إذن فالأمانة والصدق والوفاء وكل هذه القيم أمور معترف بها بالفطرة ، فساعة يوجد إنسان لم يقو على حمل نفسه على جادة القيم ، ووجد هذا الإنسانُ واحداً آخر قدر على أن يحمل نفسه على جادة القيم فهو يصاب بالضيق الشديد ، وما الذى يشفيه ويريحه ؟ إنه لا يقدر أن يصوّب عمله وسلوكه ويقوّم من اعوجاج نفسه ، لذلك يحاول أن يجعل صاحب السلوك القويم منحرفاً مثله ، وإن كانت الصداقة تربط بين اثنين وانحرف أحدهما فالمنحرف يستخذى أمام نفسه بانحرافه ، ويحاول أن يشد صديقه إلى الانحراف كى لا يكون مكسور العين أمامه . وهو لا يريده منحرفاً مثله فقط بل يريده أشد انحرافاً ؛ ليكون هو متميزاً عليه . إذن فالقيم معترف بها أيضاً حتى لدى المنحرفين ، واذكروا جيداً أننا نقرأ فى سورة يوسف هذا القول الحكيم :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يوسف)

هم فى السجن مع يوسف ، لكن لكلٍ سبب فى أنهم سجنوه ، فسبب هؤلاء الذين سألوا يوسف هو أنهم أجرموا ، لكن سبب وجود يوسف فى السجن أنه برىء . والبرىء كل فكره فى الله ، أما الذين انحرفوا ودخلوا معه السجن عندما ينظرون إليه يجدونه على حالة حسنة ، بدليل أن أمراً جذبهم وهمّهم فى ذاتهم بأن رأوا رؤيا ،

فذهبوا لمن يعرفون أنه إنسان طيب برغم وجوده معهم فى السجن ، فقد أعجبوا به بدليل أنهم قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » . ومن يقول : « إنا نراك من المحسنين » لابد أن تكون عنده قدرة على تمييز القيم ، ثم قاسوا فعل يوسف عليها فوجدوها حسنة ، وإلا فكيف يُعرف ؟ . إذن فالقيم معروفة عندهم ، فلما جاء أمر يهمهم فى ذاتهم ذهبوا إلى يوسف .

ومثال ذلك : هناك لص لا يمل من السرقة ولا يكف عنها ، وبعد ذلك جاء له أمر يستدعيه للسفر إلى مكان غير مأمون ، فاللص فى هذه الحالة يبحث عن إنسان أمين ليقضى الليل عنده ولا يذهب للص مثله . إذن فالقيم هى القيم ، وعندما قال أصحاب يوسف فى السجن : « إنا نراك من المحسنين » ، استغل سيدنا يوسف هذه المسألة ووجدهم واثقين فيه فلم يقل لهم عن حكايتهم ابتداء ويؤول لهم الرؤيا ، بل استغل حاجتهم إليه وعرض عليهم الإيمان قال :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد نقلهم من حكايتهما لحكايته ، فمادما يريدان استغلال إحسانه فلماذا لا يستغل حاجتهما له ويعظهما ويبشرهما بدين الله ؟ وكأنه يقول لهما : أنتما جئتما إلىّ لأنكما تقولان إننى من المحسنين . وأنتما لم تريا كل ما عندى بل إن الله أعطانى الكثير من فيضه وفضله ، ويقول الحق على لسان يوسف :

﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

أى أن يوسف الصديق عنده الكثير من العلم ، ويقر لهما بفضل الله عليه : فليس هذا العلم من عندى :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك يدعوهما لعبادة الإله الواحد كى يستنجدا به بدلاً من الآلهة المتعددة

التى يتخذانها معبودا لهما وهى لا تضر ولا تنفع .

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

إذن فالقيم واحدة ، والله يريد أن يتوب عليكم ، ولكن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، حتى لا تكونوا مميزين عليهم تميزاً يحقرهم أمام أنفسهم ، فهم يريدون أن تكونوا فى الانحراف أكثر منهم ، لأنهم يريدون أن يكونوا متميزين فى الخير أيضاً ويقولون لأنفسهم : « إن كنا شريرين فهناك أناس شرٌّ منا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

فسبحانه بعد أن قال : « يريد الله ليبين لكم » ليبصر ، و « الله يريد أن يتوب عليكم » ليغفر ، والآن يقول : « يريد الله أن يخفف عنكم » لييسر ، وهى ثلاثة أمور هامة . ويقول سيدنا ابن عباس ـ رضى الله عنه وعن أبيه ـ : « فى سورة النساء ثمانى آيات لأمة محمد هى خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب :

الأولى قول الحق :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثانية هى قول الحق :

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثالثة هى قول الحق :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

والرابعة هى قول الحق :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة النساء)

والخامسة هى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

والسادسة هى قوله سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والسابعة هى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثامنة هى قوله تعالى :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه هى الآيات الثمانى التى لم تؤت مثلها أى أمة إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام . ومنها قول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » . وما هو ضعف الإنسان ؟ . الضعف هو أن تستميله المغريات ولا يملك القدرة على استصحاب المكافأة على الطاعة أو الجزاء على المعصية ، لأن الذى تتفتح نفسه إلى شهوة مايستبعد-غالباً- خاطر العقوبة ، وعلى سبيل المثال ، لو أن السارق وضع فى

ذهنه أن يده ستقطع إن سرق ، فسيتردد فى السرقة ، لكنه يقدر لنفسه السلامة فيقول : أنا أحتال وأفعل كذا وكذا كى أخرج . .

إذن فضعف الإنسان من ناحية أن الله جعله مختارا تستهويه الشهوات العاجلة ، لكنه لو جمع الشهوات أو صعد الشهوات فلن يجد شهوة أحظى بالاهتمام من أن يفوز برضاء ولقاء الله فى الآخرة .

وقول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » نلحظ فيه أن التخفيف مناسب للضعف ، والضعف جاء من ناحية أن الإنسان أصبح مختاراً وخاصة فى أمور التكليف ، فالذى جعل فيه الضعف جعله مختاراً يفعل كذا أو يفعل كذا ولكل أمر مغرياته . ، ومغريات الشهوات حاضرة . ومغريات الطاعة مستقبلة . فهو يغلب دائماً جانب الحاضر على جانب المستقبل .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

وعندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت خلقه إلى أن يؤمنوا به يلفتهم إلى الكون ، ويلفتهم إلى ما خلق الله من ظواهر ليتأكدوا أن هذه الظواهر لا يمكن أن تكون قد نشأت إلا عن قادر عليم حكيم ، فإذا ما انتهوا إلى الإيمان به استقبلوا التكليف الذى يتمثل فى افعل كذا ولا تفعل كذا ، فحين يخاطبهم بالتكليف يجعل لأمر التكليف مقدمة هى أنك ألزمت نفسك فى أن تدخل إلى هذا التكليف ، ولم يرغمك الله على أن تكون مكلفاً ، وإنما أنت دخلت إلى الإيمان بالله باختيارك